مجلة آفاق للدراسات الإنسانية والتطبيقية
كلية الآداب والعلوم الأبيار - جامعة بنغازي
رقم الايداع بدار الكتب الوطنية (313-2023)
العدد الاول (فبراير-2024)

خصائص منهج أبي هلال العسكري في شرحه لديوان أبي محجن الثقفي

أ. المصري منصورفضل الله
محاضربقسم اللغة العربية-كلية الآداب والعلوم الأبيار-جامعة بنغازي

الملخص:

تناول البحث خصائص منهج أبي هلال العسكري في شرحه لديوان أبي محجن الثقفي، متبعا منهجا وصفيًّا استقرائيًّا بغية الوقوف على مسلك الشارح في شرحه لهذا الديوان، وأهمّ ما تميّز به هذا الشرح، وأهمّ القضايا التي ركّز عليها في شرحه، وقد خلص الباحث إلى جملة من النتائج منها أنّ الشارح قد اهتم في شرحه ببيان المعاني المعجمية للمفردات مستشهدا لهذه المعاني بالشعر العربي القديم، وبالقرآن الكريم، وأنّه لم يقف عند هذا الحدّ، بل راح يقدّم وجهة نظر نقديّة فيما يشرحه من أبيات، مع ما يعرض له في أثناء ذلك من قضايا بلاغيّة، أو لغويّة، وما تناوله من أحداث تاريخية.

ABSTRACT:

he research examines the characteristics of Abi Hilal's methodology in his explanation of the Diwan of Abi Mahjan Al-Thaqafi. He follows a descriptive and inductive approach in order to understand the approach of the explainer in explaining this Diwan. The research highlights the distinctive features of this explanation and the important issues that he focused on in his explanation. The researcher reached several conclusions, including that the explainer was interested in explaining the lexical meanings of the vocabulary, citing these meanings from ancient Arabic poetry and the Holy Quran. Moreover, he did not stop at this point, but also presented a critical perspective on the verses he explained, along with the rhetorical or linguistic issues he addressed and the historical events he discussed.

الكلمات المفتاحية:

(الشروح الأدبية – شرح ديوان أبي محجن الثقفي – منهج العسكري في الشروح)

المقدّمة:

إنّ الحمد لله أحمده، وأستغفره، وأستعينه، وأتوكّل عليه، وأثني عليه الخير كلّه، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد...

فقد اشتهر العرب منذ جاهليتهم، وفي العصور الإسلامية المتعاقبة، بتلقّيهم لشعر شعرائهم، واحتفائهم به، وعنايتهم بجمعه، وتدوينه، وشرحه، وقد انبرى في بادئ عصر التدوين ثلّة من العلماء، الذين اعتنوا بجمع الشعر وروايته، منهم الأصمعيُّ، وابن السِّكِّيتِ، وحمّادٌ الراوية، وغيرُهم، وهؤلاء لم يكن همّهم شرح ما يجمعونه، بل انصب جهدهم على الإكثار من الرواية، ثم بعد أن اختلط العرب بالعجم، كثر فيهم المولّدون، وفشا اللحن، واقتضى ذلك أن يفسّر الشعر، وأن يوضّح ما اشتمل عليه من إشارات تاريخيّة، أو مفردات غريبة، أو مسائل نحويّة وصرفيّة، فانبرى جيل من الشرّاح لبيان معاني الشعر، وتوضيح مراميه، كابن اسحق الذي يقول: "وإنّما نفتي فيما استتر من معاني الشعر، وأشكل من غريبه، وإعرابه، بفتوى سمعناها من غيرنا، أو اجتهدنا فيها آراءنا" (الشتوي، 1441هـ: 2020م).

وأبو هلالٍ العسكريُّ واحدٌ من أولئك العلماء الشرّاح، الذين عُرفوا بتمكُّنِهم في علوم اللغة والبلاغة والأدب، إضافة إلى ما اشتهر عنه من الفطنة، والذكاء، ورهافة الحسّ، وتوقّد الذهن، وهو إلى ذلك من الشرّاح الذين جَهِدُوا أن يستقصوا شعر بعض الشعراء بالجمع والرواية والشرح، ومن هؤلاء الشعراء الذين بلغنا شرحه لدواوينهم أبو محجن الثقفي.

تروم هذه الدراسة البحث في خصائص منهج أبي هلال العسكريِّ في شرحه لديوان أبي محجن الثقفي، وبيان مسلكه في شرح أبياته، وذلك لما عُرف عنه من علو كعبه، ورسوخ قدمه في علوم العربية؛ ولأنّ هذا الشرح- فيما يبدو- هو الوحيد لديوان أبي محجن الثقفي؛ وذلك لأنّه من الشعراء المقلّين، الذين لم تتوجّه عناية الشرّاح إلى شرح أشعارهم، ولعلّ سبب ذلك هو أنّ أكثر شعره مقطّعات قيلت في مناسبات خاصّة، ما جعل عمل أبي هلال العسكريَّ في الديوان لا يقتصر على الشرح فقط، بل يتعدّاه إلى الجمع والتدوين أيضًا.

وتسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على ما تميّز به منهج الشارح في شرحه لهذا الديوان، وقد قسّمتها إلى مبحثين، وكلُّ مبحث إلى مطلبين؛ المبحث الأوّل تناولت فيه في المطلب الأوّل التعريف بأبي محجنٍ الثقفي، من خلال اسمه، وعصره، وحياته، وجهود المحقّقين في تحقيق ديوانه، أمّا المطلب الثاني، فخصّصته للتعريف بشارح الديوان، من خلال ترجمته، وذكر أهمّ مصنّفاته، أمّا المبحث الثاني فقد جعلت المطلب الأوّل منه للتعريف بمحقّق الديوان، ومنهجه في التحقيق، وما استدركه على الديوان من أشعار متناثرة لم يذكرها الشارح، وأمّا المطلب الثاني فيتركّز البحث فيه على منهج الشارح في شرحه للديوان، وأهمِّ القضايا التي تناولها في شرحه، وخصائص هذا الشرح، ثمّ ختمت البحث بجملة من النتائج تمثّل خلاصة البحث.

تمهيد:

تعدُّ الشروح والحواشي مكوّنًا مهمًّا من مكوّنات الثقافة العربيّة الإسلاميّة، حتّى إنّه لم يخلُ فنٌّ من فنون التأليف من كتب عنيَ أصحابها بالشروح، سواءً في علوم الدين، أو علوم الدنيا، ولعلّ في هذا دليلاً على أنّ هذه الأمّة أمّةٌ معلّمة للأمم، قد أخذت على عاتقها حمل أمانة نشر العلم، وتوضيح ما استغلق فهمه على بقيّة الأمم.

والشروح الأدبيّة ظاهرة لازمت النصوص الأدبيّة منذ بداية عصر التأليف، بل تجاوزت ذلك إلى أن صارت نوعًا خاصًا من التأليف، ينتهج فيه مؤلّفوه نظامًا معيّنًا، يلتزم

عناصر الشرح، ويتناول النصّ المشروح من حيث بيان معناه، والغوص إلى البحث في معنى المعنى؛ وقد توسّل الشرّاح عددًا من الأدوات في شروحهم؛ منها الاستشهاد بالشواهد من القرآن الكريم، والشعر، ومن غيرهما، أو البحث في المعاجم عن أصل المعنى الذي أخذه الشاعر، أو استعمال العناصر المعرفيّة التي كانت متاحة في عصرهم (القفطي، 1371هـ: 1952م).

ولقد تطوّرت الشروح الأدبيّة بتطوّر المعارف العربيّة في علوم النحو، والبلاغة، والنقد، واستفاد الشرّاح من نتائج تلك العلوم، في دعم آرائهم بالحجج العلميّة، والبراهين العقليّة، خاصّة فيما يتعلّق بقضيّة السرقات الشعريّة، التي تتبّع الشرّاح فيها التطوّر التاريخي للمعاني؛ بغية الكشف عن خباياها، وجلاء حقيقتها (الشتوي، 1441هـ: 2020م، صفحة 15).

والخلاصة أنّ كتب الشروح الأدبيّة في التراث العربيّ الإسلامي- في الغالب- لا تقف عند تحديد معنى النصّ المشروح فقط، بل تتعدّاه إلى بيان كلّ ما يتصل به من معارف لغويّة، وأدبيّة، وتاريخيّة، وما ينبني على ذلك من معانٍ اكتسبها ذلك النصُّ.

في ضوء ما سبق يمكن وصف الشروح الأدبيّة في تراثنا العربيّ الإسلاميّ بأنّها تطبيق عمليٌّ لما وصلت إليه جهود العلماء المسلمين من نضج في علوم اللغة، والنقد، والبلاغة، والتاريخ، وغيرها من العلوم، وأنّ الشرّاح كانوا يستثمرون الشعر وغيره؛ لإثبات النظريّات التي كانوا يتبنّونها، وقد اختلفت تبعًا لذلك اتجاهات الشرّاح، وتنوّعت اهتماماتهم، فمنهم من ركّز على الجانب اللغويّ في شروحه، ومنهم من أولى عناية برواية الأخبار والأحداث، ومنهم من أفاض القول في توضيح القضايا البلاغيّة، والنقديّة، والفنيّة، ومنهم من جمع كلّ تلك الاتجاهات في شرحه، وتبعًا لهذا الاختلاف والتنوّع اختلفت العناصر التي اعتنى بها كلّ شارح؛ وفي العموم فإنّ تلك الشروح قد حفظت التراث العربيَّ الإسلاميَّ من الاندثار، ومثّلت حلقة وصل بين عصور الازدهار، وما بعدها، وأنّ تلك الشروح كانت سببًا في بروز أعلام في شتّى علوم العربيّة، وآدابها.

المبحث الأوّل:

المطلب الأوّل: أبو محجن الثقفي نسبه، وحياته:

ذكر صاحب الاستيعاب أنّه اخْتُلِفَ في اسم أبي محجن، "فقيل: اسمه مالك بن حبيب، وقيل: عبد الله بن حبيب بن عمرٍو بن عمير بن عوف بن عُقدة بن غِيَرة بن عوف بن قَسِيّ –وهو ثقيف- الثقفي، وقيل: اسمه كنيته، أسلم حين أسلمت ثقيف، وسمع من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ورُويَ عنه، حدّث عنه أبو سعد البقّال، قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "أخوف ما أخاف على أمّتي من بعدي ثلاثٌ: إيمانٌ بالنجوم، وتكذيبٌ بالقدر، وحيفُ الأئمة" (النمري، 1423هـ: 2002م).

وذكر الذهبيُّ أنّ في اسمه أقوالاً، "وأنّه قدم مع وفد ثقيف، فأسلم، ولا رواية له، وكان فارس ثقيف في زمانه، إلاّ أنّه كان يدمن الخمر زمانًا... وقد جُلد مرارًا، حتّى إنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفاه إلى جزيرة، فهرب منها، ولحق بسعد بن أبي وقاص بالقادسيّة، فكتب إليه عمر، فحبسه، فلمّا كان يوم قَسِّ النَّاطف، والتحم القتال، سأل أبو محجن من امرأة سعد أن تحلّ قيده وتعطيه فرسًا لسعد، وعاهدها إن سَلِمَ أن يعود إلى القيد، فحلّته، وأعطته فرسًا، فقاتل، وأبلى بلاءً جميلاً، ثم عاد إلى قيده" (الذهبي، 1407هـ: 1987م).

ويروي الذهبي أن سعدًا لمّا علم بأمره، أطلق سراحه، فأقسم أبو محجن أن لا يشرب الخمر بعدها أبدًا (الذهبي، 1407هـ: 1987م، صفحة 301).

وتنقل كتب السير والتراجم أنّ أبا محجنٍ الثقفي هو القائل (النمري، 1423هـ: 2002م، صفحة 857).

إذا مِتُّ فادفنّي إلى جنب كرمةٍ ..... تُروّي عظامي بعد موتي عُرُوقُها

ولا تدفِنّي بالفلاة فإنّني ..... أخاف إذا ما مِتُّ ألاّ أذوقها

وزعموا أنّهم رأوا ثلاثة أصولِ كرمٍ نبتت على قبره بأذربيجان، وقيل في نواحي جرجان (الأصفهاني، 1993) (الذهبي، 1407هـ: 1987م، صفحة 168).

وأبو محجن شاعرٌ مطبوعٌ مخضرمٌ، عدّه ابن سلاّم في شعراء الطائف، ووصفه بأنّه: "شاعرٌ شريفٌ" (الجمحي، د.ت)، واستشهد بشعره ابن هشام، وابن منظور، وهو من الشعراء الذين عاشوا في الجاهليّة، وأدركوا الإسلام، وهو إلى ذلك من الشعراء الفرسان المعدودين من أولي البأس والشدّة، مع ما عُرف عنه من معاقرته للخمر، حتّى حدَّ فيها كثيرًا.

ولأبي محجن ديوان برواية أبي هلال العسكريّ، وشرْحِهِ، طُبع أوّلاً بطبعة بريل بمدينة ليدن ضمن كتاب حمل عنوان (طُرف عربيّة) عُني بجمعها الشيخ عمر السويدي سنة 1202هـ، 1886م، وهي ذات النسخة من الديوان التي أعيد نشرها منفردة بمطبعة الأزهار البارونيّة بالحبّانيّة بمصر، وفي مقدّمة هذه الطبعة ترجمة لشارح الديوان منقولة من كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (أبوسهل، د.ت)، وقد تصدّى بعض المعاصرين للديوان بالتحقيق، منهم الدكتور صلاح الدين المنجّد الذي قام بنشر الديوان والتقديم له، في كتاب من منشورات دار الكتاب الجديد بلبنان سنة 1970م، كذلك قام محمّد محيي الدين مينو بتحقيق شرح الديوان، ونشر محقّقًا بدار الثقافة بالشارقة سنة 2014م، كذلك قام يوسف عبد الوهّاب بتحقيق الديوان، ونشرته مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، سنة 1995م، كذلك قام الدكتور محمّد سالمان، بجمع الديوان، وتحقيقه، ودراسته ضمن كتاب احتوى مجموعة من الدواوين الشعريّة تحت عنوان: (دواوين الشعر العربي)، نشرته الهيئة المصريّة للكتاب سنة 2007م، وهذا هو التحقيق الذي اعتمدناها في هذه الورقة البحثيّة؛ نظرًا لعناية المحقّق بتتبع الروايات الواردة لشعر أبي محجن، واستدراكه للنقص في الدواوين السابقة.

المطلب الثاني:

أبو هلالٍ العسكريُّ، نسبه، وحياته، وأهمّ مصنّفاته:

هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، أبو هلال: عالم بالأدب، له شعر... من كتبه التلخيص، وجمهرة الأمثال، وكتاب الصناعتين، ونسبته إلى عسكر مكرم، وهي مدينة من كور الأهواز (خلكان، 1972)، ذكر ياقوت أنّه كان موصوفًا بالعلم والعفّة، وأنّه كان يتبزّز احترازًا من الطمع، والدناءة، والتبذّل، وأنّ الغالب عليه الأدب والشعر، وله كتاب في اللغة وسمه بالتلخيص، كما أنّ له الشرح المعروف بشرح الحماسة، إضافة إلى ديوان شعره، ومن شعره قوله (الحموي، 1993):

جلوسي في سوق أبيع وأشتري .... دليلٌ على أنّ الأنام قرود

ولا خير في قوم تُذلُّ كرامهم .... ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ويهجوهمُ عنّي رثاثة كسوتي .... هجاءً قبيحًا ما عليه مزيد

وذكر ياقوت أنّ لم يبلغه شيء في وفاته، إلاّ أنّه فرغ من إملاء الأوائل يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثِمائة (الحموي، 1993، صفحة 921).

إنّ المتتبع لسيرة أبي هلال العسكريّ يتبيّن له أنّ الرجل قضى شطرًا من حياته في الدرس والتأليف، وأنّه ترك للمكتبة العربيّة إرثًا علميًّا كبيرًا تناول علومًا مختلفة، في الأدب والتاريخ والحديث والتفسير، وإن كان الغالب على تأليفه الأدب والشعر، مع تمكّنه في علوم اللغة والنحو والصرف والعروض والبلاغة وأخبار العرب وأنسابهم، وهذه العلوم كانت عند الأقدمين لازمة لكلّ شارح للأدب؛ لذلك كان من الطبيعي أن يتصدّر أبو هلالٍ للتأليف في الشروح الأدبيّة، التي تتناول الدواوين الشعريّة، وله شرح الحماسة، وهذه الحماسة مفقودة إلاّ ما بقي منها في مختارات كتاب التذكرة السعديّة للعبيدي، وله رسالة

مخطوطة ذكرها صاحب كتاب (شروح حماسة أب تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقاتها) وذكر أنّ العسكري صنعها وضبط فيها مواضع الحماسة وقد أورد في مقدّمتها قوله: "كرّ بي في نسخة الحماسة بخط بعض أجلاء الشيوخ... مواضع لم تضبط حقَّ الضبط، ولم تجرِ على سنن العدل، فرأيت الإبانة عن مواقع الزلل فيها؛ لئلا أنسب إلى الخطأ إذا رويت خلافها" (علي، د.ت)، وهذا الشرح الذي نحن بصدد دراسته.

المبحث الثاني:

المطلب الأوّل محقّق الديوان:

محقّق الديوان هو الدكتور محمّد علي علوان محمّد سالمان، الشهير في الأوساط الأدبيّة بمحمّد سالمان، من مواليد قرية الغفارية بمحافظة الشرقيّة بمصر، متحصّل على الماجستير والدكتوراه في الأدب العربي من أكاديميّة الدراسات العليا بطرابلس ليبيا، وكانت رسالته للدكتوراه باكورة الرسائل التي منحتها هذه الأكاديميّة؛ شاعرٌ له أربعة أعمال شعريّة، وله دراسات في الأدب العربي، منها مختصر كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، صدر عن الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، كما أنّ له في مجال تحقيق التراث جهودًا كبيرة، حيث حقّق الأعمال الآتية:

1. إخبار الأخيار بما وجِد على القبور من أشعار، لأحمد بن خليل اللبودي.
2. بلاغات النساء لابن طيفور.
3. ديوان الإمام الحسن بن علي.
4. ديوان البابا شنودة.
5. ديوان ابن سكّرة الهاشمي.
6. ديوان ابن طباطبا.
7. ديوان ابن مرج الكحل الأندلسي.
8. ديوان أبي بكر الخوارزمي.
9. ديوان أبي الشمقمق.
10. ديوان أبي محجن الثقفي.
11. ديوان صفوان التجيبي الأندلسي.
12. ديوان الواساني.
13. السريرة المنزعجة في شرح القصيدة المنفرجة، لعلاء الدين بن علي بن يوسف العتكي المعروف بالبُصْرَوي، وهي قصيدة من أربعين بيتًا.
14. شرح ديوان الزفيان السعدي.
15. عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، في أربع وعشرين جزءًا، بالاشتراك.
16. فنُّ الألغاز عند العرب، وقد ضمّ ثلاث رسائل تراثيّة، صدر عن الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سنة 2013م.
17. المفصح المفهم والموضح الملهم لمعاني صحيح مسلم، كتاب في شرح غريب مسلم، أربعة أجزاء، وهو معجم لغريب الحديث في صحيح مسلم، بالاشتراك، صادر عن الهيئة المصريّة العامّة للكتاب 2010م.
18. موطّأة الفصيح في نظم فصيح ثعلب، لمالك بن عبد الرحمن المالقي الأندلسي الشهير بابن المرحّل.
19. نيل الأماني بشرح التهاني، للإمام الحسن بن مسعود اليوسي، وهو كتاب في شرح قصيدته (الدالي في مدحه شيخه أبي عبد الله محمّد بن ناصر الدرعي).

كما أنّ للمحقّق جهودًا في مجال مراجعة الأعمال العلميّة، والتقديم لها، منها على سبيل المثال مراجعة كتاب تراجم الأوائل والخلفاء لخير الدين الزركلي، وقد صدر هذا الكتاب عن الهيئة المصريّة للكتاب، بالإضافة إلى المقالات والمشاركات العلميّة.

وقد انتهج المحقّق في تحقيقه للديوان خطّة تبدأ بالتعريف بأبي محجن الثقفي من خلال اسمه، وعصره، وحياته، ثمّ تناول الروايات الواردة لشعره، متتبّعًا أماكن وجودها، ثم المخطوط محلّ التحقيق، وسماته الإملائيّة، مبيّنًا منهجه في التحقيق، وما استدركه على الطبعات

السابقة المحقّقة للديوان من قصور في التحقيق (سالمان، 2007).

المطلب الثاني منهج شارح الديوان:

لقد ذكر أبو هلال العسكريُّ في مقدّمة شرحه للديوان السبب الذي دعاه إلى شرحه، وهو أنّ الشرّاح في عصره، ومن سبقوهم عُنُوا بشرح دواوين المكثرين والمشهورين من شعراء الجاهليّة والإسلام، مبيّنًا مناهجهم في شرح تلك الدواوين، فقد "أشبعوا تفسير مشكلها، وبالغوا في إيضاح غامضها، واستقصوا شرح غريبها، متلافين ما فرّط فيه غيرهم منها" (سالمان، 2007، صفحة 43: 44)، ولكنَّه يعيب عليهم اغفالهم دواوين المقلّين والمغمورين، فكان ذلك داعيًا إلى التفاته إليها، محتذيًا مسلك الشرّاح لتلك الدواوين، مشيرًا إلى أنّه قد بدأ هذا الجهد بشرح ديوان أبي محجن هذا، متعهدًا بأن يتبعه بشرح دواوين أخرى (سالمان، 2007، صفحة 44).

يبدأ أبو هلالٍ العسكريُّ شرحه للديوان بترجمة موجزة لأبي محجن الثقفي، ثمّ يشرع في شرحه الذي يستهلّه بشرح معاني الألفاظ، وتفسيرها متتبّعًا دلالاتها المعجميّة، مستشهدًا لتلك المعاني، ومن ذلك شرحه لقول أبي محجن (سالمان، 2007، صفحة 46).

قد يعلم الناس أنّا من سراتهم ... إذا سما بصر الرعديدة الفرق

يقول: "سُراة القوم خيارهم، واحدهم سَرِيٌّ، والسُراة- أيضًا- أعلى الشيء، والجمع السروات، ويقال هو من سروات القوم؛ أي من أعاليهم وساداتهم، قال الشاعر: من السروات والرؤوس الذوائب" (سالمان، 2007، صفحة 47)

ثمّ يقول: "وسما بصره: شخص من الفزع، وهو أن يبقى مبهوتًا، وهو من قوله تعالى: (ليوم تشخص فيه الأبصار)" (سالمان، 2007، صفحة 47).

لكنّه لا يقتصر على إيضاح المعاني فقط، بل نراه يهتمّ في شرحه بالجوانب النقديّة والبلاغيّة واللغويّة والتاريخيّة، وهو شأنُ عدد من الشرّاح في عصره (قباوة، 1997)، مستعملاً معيارًا نقديًّا بلاغيًّا هو معيار المفاضلة والموازنة بين الشعراء، في المعاني، ومن ذلك شرحه لبيت أبي محجن (سالمان، صفحة 45):

لا تسألي النّاس عن مالي وكثرته ... وسائلي القوم عن ديني وعن خلقي

فهو يفاضل بينه، وبين قولِ المنخَّل اليشكري.

لا تسألي عن جلِّ ما ... لي وانظري حسبي وخيري

وقولِ المَزَّارِ الفَقْعَسِي:

لا تسألي الناس عن مالي وكثرته ... قد يقتر المرء يومًا وهو محمود

ويحكم لبيت أبي محجن بأنّه أفضل من كلّ بيت قيل في معناه (سالمان، صفحة 45)، وهو في أثناء المفاضلة يستخدم مصطلح الأخذ، الذي يرى أن ليس لأحد من أصناف القائلين غنىً عنه؛ وذلك أنّ المدار عنده على حسن الأخذ، لا على فضل السبق (العسكري، 1371هـ: 1952م)، وقد نراه يشير إلى موضع الأخذ دون أن يفاضل بين البيتين، كما في تعليقه على قول أبي محجن (سالمان، صفحة 65):

وأضحى بنو عمرٍو لدى الجسر منهم ... إلى جامد الأبيات جود ونائل

يقول العسكريُّ: "هذا مأخوذ من قول النابغة: غودر بالجولان حزم ونائل" (سالمان، صفحة 65)، ومن صور هذا الشرح البلاغي النقدي قوله عند شرح بيت أبي محجن (سالمان، صفحة 46).

قد يعلم الناس أنّا من سُراتهم ... إذا سما بصر الرعديدة الفرقِ

يقول: "والرعديدة الجبان، وسُمّيَ رعديدةً؛ لأنّه إذا رأى الحرب أرعد، ودخول الهاء فيه ها هنا للمبالغة" (سالمان، صفحة 47)، ثمّ يضيف تعليقًا نقديًّا بلاغيًّا على كلمة

(الرعديدة) "ولو قال إنّا نصبر ونحامي إذا سما بصر الشجاع الصبور لكان أجود، بل أبلغ" (سالمان، صفحة 47).

ومن الشرح البلاغي قوله عند شرح البيت القائل (سالمان، صفحة 48):

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرضٍ ... تُنفي المسابير بالإزباد والفهق

"وجعلها تنفيه وترده على جهة المجاز، كما تقول: منعتهم السيوف عن دخول البلد، والمراد أنّ أصحابها منعوهم بها" (سالمان، صفحة 48).

ومن الشرح النقدي البلاغي انتقاده الزيادة في اللفظ الذي لا يفيد معنىً؛ ولذلك أبدى عدم استحسانه لمعنى البيتين القائلين (سالمان، صفحة 56: 57):

الحمد لله نجّاني وخلّصني ... من ابن جهراء والبوصيّ قد حُبسا

من يركب البحر والبوصيّ معترضًا ... إلى حضوضي فبئس المركبُ التمسا

وذلك أن (نجّاني)، و(خلّصني) واحدٌ في المعنى، وكذلك ركوب البحر هو في المعنى ينبئ عن ركوب البوصيّ، والشاعر إنّما أراد التوكيد، فكانت زيادة في اللفظ لم تفد معنى جديدًا، يقول العسكريُّ: "وليس ذلك بالجيّد في الشعر؛ لأنّ من حقّ الشعر أنْ تكون ألفاظه كالوحي، معانيه كالسحر" (سالمان، صفحة 57).

ومن الشرح النقدي البلاغي استحسانه للكناية في قول أبي محجن (سالمان، صفحة 73):

إنّ الكرام على الجياد مقِيْلُهُمُ ... فذري الجياد لأهلها وتعطّري

يقول العسكريُّ: "هذه كناية لطيفة، المقيل في الأصل حيث يقيل الرجل، وكثر حتّى قيل لموضع الشيء مقيله" (سالمان، صفحة 73).

ومن الشرح النقدي البلاغي أيضًا استهجانه لتشبيه صوت الغناء بطنين الذباب، وموازنته ببيت عنترة بن شدّاد، في قول أبي محجن: (سالمان، صفحة 75):

وقد تقوم على رأسي مغنّية ... فيها إذا رفعت من صوتها غُنُجُ

ترفع الصوت أحيانًا وتخفضه ... كما يطن ذباب الروضة الهزجُ

يقول العسكريُّ: "الهزج الصوت، شبّه الغناء بطنين الذباب، وهو ردئ، لكن الجيّد أنْ يشبّه طنين الذباب بالغناء، كمال قال عنترة (سالمان، صفحة 75: 76):

وخلا الذباب بها فليس بنازحٍ ... غرِدًا كفعل الشارب المترنّم"

ومن الشرح النقدي البلاغي الإشارة إلى موضع الإيجاز، وبيان نوعه، والتمثيل له من القرآن، عند شرحه لقول أبي محجن (سالمان، صفحة 77):

وأنا رفدهم في كلّ يومٍ ... فإنْ غضبوا فسل رجلا عريفًا

يقول العسكريُّ: "الرفد العطيّة، يقول نحن أصحاب رفدهم، فحذف إيجازًا، كما قال الله تعالى: (يحول بين المرء وقلبه)؛ أي يحول بين المرء، وتمنّي قلبه، فحذف التمنّي إيجازًا" (سالمان، صفحة 77).

ولا يقتصر الشارح في شرحه على القضايا البلاغية النقدية فقط، بل نجده لا يُغْفِل- وهو العالم اللغوي- الجوانب اللغويّة التي تعرض له أثناء شرحه للديوان، ومن ذلك شرحه لقول أبي محجن (سالمان، صفحة 50):

وأكشف المأزق المكروب غمته ... وأكتم السرَّ فيه ضربة العنق

حيث أشار إلى جواز مجيء اسم المفعول (المكروب)، بمعنى اسم الفاعل (الكارب) (سالمان، صفحة 51)

ومثله أيضًا تعليقه على البيت الذي يقول فيه أبو محجن (سالمان، صفحة 64):

إلى فتية بالطفِّ نِيلت سراتهم ... وغودر أفراس لهم ورواحل

يقول العسكريُّ: "الراحلة فاعلة بمعنى مفعولة" (سالمان، صفحة 64).

ومن الشرح النحوي أيضًا، تعرضه لمسألة تسمية المثنّى بالجمع؛ "لأنّ التثنية جمع" (سيبويه، 1408هـ 1988م)، وذلك في قول أبي محجن (سالمان، صفحة 66):

وما رِمْتُ حتّى خرّقوا برماحهم ... ثيابي وجادت بالدماء الأباجل

كما يحتوي الشرح على إشارات للأحداث التاريخيّة، ومن ذلك ذكره لقصّة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، مع أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب- رضي الله عنهما. عندما سأله عن أشعر الناس، فأجاب علي رضي الله عنه بأنّه أبو محجن في قوله: لا تسألي الناس عن مالي وكثرته، فقال أمير المؤمنين عمر: أيدتني يا أبا الحسن، أيّدك الله (سالمان، صفحة 53)، ويذكر ابن سهل أنّ أمير المؤمنين عمر هو أوّل من قال: أيّدك الله (سالمان، صفحة 54).

ومن الشرح التاريخي سرده لما حدث بين المسلمين والفرس يوم قسّ الناطف، وما وقع من أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي، الذي انتدب لقتال الفرس، مع رهط من المسلمين، أمّره أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب عليهم، ويروي خبر انتصارهم على قوّاد يزدجرد أخر ملوك الدولة الساسنيّة، ثمّ ما وقع بين المسلمين والفرس في قس الناطف، وقتل أبي عبيدة وأبي محجن للفيل، واستشهاد أبي عبيدة، وانكشاف المسلمين، وذلك عند شرحه لقول أبي محجن (سالمان، صفحة 59: 62):

يا عين بَكّي أبا جبرٍ ووالدَه ... إذا تحطّمت الرايات والحلق

ومن الشرح التاريخي ذكره طرفًا من قصّة الملك جذيمة بن الأبرش مع مولاه قصير، التي ذكرها مفصّلة في كتابه الأمثال، وذلك عند شرحه لقول أبي محجن (سالمان، صفحة 62):

يا ضَل ضَل المنايا ما تركن لنا ... عزًا نبوء به ما هُدِّل الورِق

ومن الشرح التاريخي أيضًا، ذكره خبر معاقرة أبي محجن للخمر، وسجن سعد بن أبي وقّاص له، بعد أن رفض أن يترك شربها، يقول أبومحجن في ذلك (سالمان، صفحة 70):

ألا سَقِّني يا صاح خمرًا فإنّني ... بما أنزل الرحمن في الخمر عالم

وجد لي بها صرفًا لأزداد مأثما ... ففي شربها صرفٌ تتمُّ المآثم

ويستطرد الشارح في ذكر ما حدث بعد ذلك من فشل المسلمين في قتال الفرس، وسؤال أبي محجن زوجة سعد أن تطلق سراحه، بعد أن عاهدها أن يعود لمحبسه، وبلائه في قتال الفرس، لتنتهي القصة بانتصار المسلمين، وتوبة أبي محجن عن شرب الخمر.

ومن الشرح التاريخي ذكره قصّة وفود غيلان بن سلمة الثقفي عمّ أبي محجن على كسرى، وما دار بينه وبين الملك.

والخلاصة أنّ أبا هلالٍ العسكريَّ في تعامله مع ديوان أبي محجن، يتجاوز في شرحه حدود الجمع والرواية، ويتعدّى تفسير اللفظ، جامعًا بين جوانب متعدّدة، فهو يترجم للشاعر في أوّل الديوان، ويعرّف به، ثم هو يفسّر المعاني ويبيّنها، وهو إلى ذلك يتعرّض إلى القضايا اللغويّة والبلاغيّة والتاريخيّة، معتمدًا على ثقافة غزيرة، ومعارف متنوّعة، أهّلته إلى إدراك أسرار جودة الشعر، والغوص إلى بواطن مزاياه، ويبدوّ أنّ هذا النهج سنّة متبعة عند العسكريّ في شروحه الأدبيّة، وإن غلب عليه النقد كثيرًا (قباوة، صفحة 70)، وبالتالي فهو يناقش النصّ مناقشات متنوّعة يمكن إجمالها، وبيان أهمّ خصائصها في الآتي:

1. أنّ الشرح الأدبيّ عنده يمثّل نوعًا من التأليف، يهتمّ ببيان النصّ المشروح، وإيضاح ما خفي من معناه، يبدأ عادة بمناقشة للدلالة المعجميّة للألفاظ، وتتبع لمعانيها، واستشهاد لتلك المعاني من الشعر، أو القرآن الكريم.

2. ينبسط القول بعد ذلك عنده إلى بيان معنى المعنى، من خلال مناقشة بلاغيّة نقديّة، تستثمر علوم البلاغة العربيّة، وتستعين بها لتحليل الشعر، ومن ثمّ يُصدر الشارح أحكامه النقديّة المعلّلة، من خلال موازنة النصّ الشعري مع نصوص سابقة، وهو في شرحه النقدي يدور بين الاستحسان، والاستهجان، فيشهد للشاعر بالجودة في معنىً سبقه إليه الأوّلون، أو يستهجن مخالفته لسننهم، وما درجوا عليه من تشبيه ومجاز.

3. ينفتح القول بعد ذلك عند العسكري إلى محاورة النصّ محاورة لغويّة، ومناقشته مناقشة ينصبُّ فيها اهتمامه على القضايا النحويّة خاصّة، ولكن دون غوص فيها، بل قد يكتفي بالإشارة العارضة إليها، كما في إشارته إلى جواز مجيء اسم المفعول (المكروب)، بمعنى اسم الفاعل (الكارب)، وتعرّضه لمسألة تسمية المثنّى بالجمع.

4. يسترسل الشارح في بسط آرائه في المسائل العلميّة التي يتضمنها النصّ، ومنها المناقشة التاريخيّة، التي يستعرض فيها الأحداث التاريخيّة، ويسهب في تفاصيلها أحيانا، متخذًا منها علّة دافعة، هيّجت الشاعر إلى القول؛ ولذلك نجده يحرص على توثيق تلك الحوادث زمانًا ومكانًا، باعتبارها الإطار المرجعي للصورة الشعريّة، بالإضافة إلى أنّها تمثّل دليلاً على ثقافته التاريخيّة، التي مكّنته من الغوص إلى ملابسات القول ودواعيه، حيث تصبح الواقعة التاريخيّة هي منشأ القول، وذلك كما في قصّة أبي محجن مع زوج سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، التي كانت سببًا في إنشاء أبي محجن لتلك الأبيات موضوع الشرح (سالمان، الصفحات 61: 62 - 70: 73).

5. يكاد يكون الشرح عند أبي هلال العسكريّ خطابًا معرفيًا متكاملاً؛ لأنّه إضافة لما سبق لا يخلو من مناقشة تاريخيّة مفارقة لزمن القول، ومباينة لوقائعه الحقيقيّة، لكنّها جاءت لتكسب النصّ الشعري المشروح حُلّة من الفنّ، تخدم النصّ، وتزيده وضوحًا، كما رأينا في سرده لقصّة المثل القائل: "يا ضل ما تجري به العصا".

وفي الختام يمكن القول باطمئنان أنّ شرح أبي هلال العسكريّ لديوان أبي محجن ليس مجرّد وسيلة يُتوَصّلُ بها لاستجلاء معاني النصوص، التي شرحها، بل هو في ذاته نصٌّ فنّيٌّ، لا يخلو من إشارات جماليّة لطيفة، ولفتات بلاغيّة، وإضاءات نحويّة وصرفيّة.

النتائج والتوصيات:

وفي نهاية تتبع الباحث لشرح أبي هلال العسكري لديوان أبي محجن الثقفي، يمكن أن يجمل أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج، وما يقترحه الباحث من توصيات في النقاط الآتية:

1. لقد كان اهتمام العرب بشرح أشعارهم موازيًا لاهتمامهم بجمع تلك الأشعار، وتدوينها، وقد تطوّرت تلك الشروح بتطوّر علوم العربيّة، على أنّ بعض تلك الشروح لم يصل إلينا، أو وصل ناقصًا، أو ضاع مع ما ضاع من تراث هذه الأمّة.
2. يعدُّ أبو هلال العسكري من أوائل الشرّاح الذين عُنوا باستقصاء الشعر، وجمعه، وتدوينه، وروايته، وشرحه.
3. الظاهر أنّ ما قام به العسكري من جمع وشرح لديوان أبي محجن الثقفي كان باكورة جهد وجهّه لأشعار المقلّين من الشعراء، ولكن لم يصل إلينا منه إلاّ هذا الشرح.
4. لم يقتصر جهد أبي هلال العسكري في شرحه للديوان على مجرّد إيضاح المعاني، بل أولى عناية فائقة

بالجوانب النقديّة والبلاغيّة واللغويّة والتاريخيّة، معتمدًا معيار الموازنة والمفاضلة بين الشعراء في المعاني المشتركة.

5. لقد ساهم تطوُّر علوم العربيّة في تطوّر الشروح الأدبيّة، فلم تعد تقتصر على تحديد معنى النصِّ المشروح فقط، بل تعدَّته إلى ما يتَّصل به من معارف لغويّة وأدبيّة وتاريخية، ما جعل تلك الشروح تطبيقًا عمليًّا لما وصل إليه علماؤنا من نضج في مختلف العلوم.
6. لقد ساهمت الشروح الأدبيّة في حفظ تراثنا من الاندثار، ومثّلت حلقة وصل بين عصور الازدهار وما بعدها، كما ساهمت في إبراز أعلام في شتّى علوم العربيّة وآدابها.
7. يوصي الباحث بإيلاء الشروح الأدبيّة الأهميّة التي تستحقها، لما لها من دور محوري في ثقافتنا العربيّة، كونها تمثّل جزءًا أصيلاً من الجهد التدويني والنقدي لتراثنا الشعري، بالإضافة إلى قيمتها التعليميّة.
8. يقترح الباحث أن تُدْرَسَ الشروح الأدبيّة في المرحلة الجامعيّة الأولى ضمن مقرر النقد الأدبي القديم؛ ليستبين الطالب إسهامات الشرّاح الأدبيين في تطوّر النقد العربي القديم.

المراجع:

1.ي الشتوي إبراهيم (1441هـ: 2020) الشروح الأدبيّة دراسة في تكوين الخطاب المعرفي، حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، الحوليّة 40، الرسالة 540، ص15.

2. لقفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (1371هـ: 1952) إنباه الرواة على أنباه النحاة، ، تحقيق، محمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصريّة، الطبعة الأول، الجزء الثاني، ص106.

3. القرطبي، الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ القرطبي النَّمري، (ت 463 ه) (1423هـ: 2002) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، صحّحه وخرّج أحاديثه، عادل مرشد، دار الأعلام، الأردن، الطبعة الأولى، ص856.

4. الذهبي، الحافظ المؤرخ شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748ه) (د. ت) تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام، عهد الخلفاء الراشدين حوادث ووفيّات (11 – 40ه)، تحقيق عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، ص300 : 302.

5. الأصفهاني، أبي الفرج، الأغاني ، الجزء التاسع عشر، ص13، وتاريخ الإسلام للذهبي، المجلد الثاني، ص168.

6. الجمحي، محمّد بن سلاّم، (139 – 231ه) طبقات فحول الشعراء، شرح، محمود محمّد شاكر، الجزء الأوّل، دار المدني، جدّة، ص268، د. ط.

7. أبي سهل، الحسن بن عبد الله، ديوان أبي محجن الثقفي وشرحه، مطبعة الأزهار البارونيّة، مصر، ص2.

8. ابن خلكان، وفيّات الأعيان، ، تحقيق إحسان عبّاس، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ص84 : 85.

9. الحموي، ياقوت الحموي الرومي (1993)، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عبّاس، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ، الجزء الثاني، ص918 : 922.

10. ذكر صاحب كتاب (شروح حماسة أبي تمّام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها) أن مخطوطة هذه الرسالة موجودة بتركيا بمكتبة لاه لي تحت الرقم 1711، من 27 ورقة مكتوبة بخط النسخ.

11. سالمان، محمد (2007) نحقيق، من ديوان شعر العرب، (ديوان أبي محجن الثقفي، ديوان صفوان التجيبي، وديوان ابن مرج الكحل)، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ص21 : 23.

12. قباوة، فخر الدين (1997) منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخيّة للمفضّليّات، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية 1418هـ، ص64 : 72.

13. العسكري، أبو هلال، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى 1371هـ، 1952م، ص196.

14. سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثالث، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (د. ت)، ص622.

15. العسكري، أبو هلال، جمهرة الأمثال، تحقيق، محمّد أبو الفضل إبراهيم، وعبدالمجيد قطامشس، دار الجيل، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية 1405هـ، 1988م، الجزء الأوّل، ص191.